

البَابُ الْخَامِسُ عَشَرَ

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

فضل المدينة المنورة

أرض الله :

هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه إلى المدينة المنورة ، فشرّفها الله بهجرته إليها صلى الله عليه وسلم ، فصارت مركزَ الدعوة إلى الله ، وحصن الدفاع عن الإسلام كما كانت مهبط الوحي ومنزل ملائكة السماء ، وقد سماها كتاب الله « أرض الله » في قوله تعالى :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) .

ويقول الإمام القرطبي إن الآية تشير إلى جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا ، وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم ، وفتن منهم جماعة فافتتنوا ، فلما كان أمر بدر ، خرج منهم قوم مع الكفة أرفنزل الآية ، وقولهم (كنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) أى فى مكة هو اعتذار غير صحيح ، إذ كانوا يستطيعون أن يتحايّلوا على الخروج من مكة ، ولذلك تقول لهم الملائكة تقرّيعاً لهم :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) . أى المدينة المنورة ، وما أفخر ما حلاها الله به فلقبها بأرض الله ، فلئن كانت مكة المكرمة حرم الله فالمدينة المنورة أرض الله ، وكيف لا يجعلها الله أرض الله ، وقد هاجر إليها رسول الله وصارت آخر الأمر مثواه ؟

فضل المدينة :

وقد جاء في فضل المدينة المنورة أحاديث كثيرة ، وكفاها فخراً أن يقول فيها صلى الله عليه وسلم « إن الإيمان ليأرزُ ^(١) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُمُحرها » ، وقد قيل فيها بحق :

دار الحبيب أحق أن تهواها	وتسحين من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممت بزورة	يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
لا كالمدينة منزل وكفى لها	شرفاً حاول محمد بفناها
جزم الجميع بأن خير الأرض ما	قد حاط ذات المصطفى وحوها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت	كالنفس حين زكت زكى مأواها

وقال ابن وهب : سمعتُ مالِكاً يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تَبَوَّأت بالإيمان والهجرة ، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ، ثم قرأ (والذين تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ...) الآية .

وهو ابتداء كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم ، فإنهم سلَّمُوا الفِءَ ^(٢) للمهاجرين ، وكأنه تعالى قال : الفِءُ للفقراء المهاجرين ، وقد أحبهم الأنصار ولم يحسدهم على ما صفا لهم من الفِءِ .

ويقول صديق الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب - وهو من أهل الطائف بالسعودية - في قصيدة أهداها لي في مناسبة تعارفنا بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم وذلك في سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) :

بَلَدُهُ قَدَسَهَا الرَّحْمَنُ إِذْ	حازت الفخر بخير المرسلين
فهي والبيت العتيق المحبتي	منبع الدين ومأوى اللاجئين
كل عام لي إلى أكنافها	رحلة أشقى بها قلبي الحزين

(١) يأرز أى ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض فيها .

(٢) الفِءُ : الأموال التي تقول للمسلمين من أعدائهم بغير حرب .

كم سَفَحَتْ الدَّمْعَ إِذْ لَمْ أَرَهَا
وَضَرَبْتَ الْكَفَّ بِالْكَفِّ فَيَا
وَبَقْلِي مِنْ جَرَاحَاتِ النَّوَى
حَرَمُ الْمُخْتَارِ أَسْمَى مَنْزِلًا
إِذْ بِهِ الرُّوضَةُ قُرْبَ الْمُصْطَفَى
كَمْ بِهَا مِنْ عَبَّرةٍ فَيَاضَةً
كَمْ تَبَارَى لِنُورِهَا هَائِمٌ
كَمْ تَلَا الْقُرْآنَ فِيهَا مُخَبِّتٌ
فَلَأَنَارِ سَجُودِ الْمُصْطَفَى

مرة يا صاح في كر السنين
حسرتي للبُعْدِ عَنْ ذَاكَ الْقَطْنِ
أَلَمْ يَبْدُو لَعَيْنِ النَّاطِرِينَ
بِفَوَادِي مِنْ قُصُورِ الْمَرْفَيْنِ
كَمْ سَعَى جَبْرِيلُ فِيهَا لِلْأَمِينِ
لِمُحِبِّ كَمْ بِهَا مِنْ صَالِحِينَ
كَمْ عَلَا فِيهَا دَعَاءُ السَّاجِدِينَ
وَسَعَى لِلْخَيْرِ سَعَى الْمُحْسِنِينَ
فِي ثَرَاهَا طِيبِ عَرَفِ الْيَاسَمِينَ

تربة المدينة مؤمنة :

أقول : والله در القائل :

أَرْضُ مَشَى جَبْرِيلُ فِي عَرَصَاتِهَا وَاللَّهُ شَرَّفَ أَرْضَهَا وَسَمَاهَا

وقد حدثني صديقي الصالح المبارك الحاج حسين أبو العلا (وهو مدني يسكن
المدينة المنورة ، وله بها بستان قريب من الحرم الشريف) - فقال إنه حين أُرَادَ
أن يزرع بستانه دق في أرض البستان ما سورة مياه ارتوازية ، ولما ذاق الماء الذي
أنوره به أول مرة وجدته مالحة لا تصلح به الزراعة ، فقال يارب : إن رسولك الكريم
صلى الله عليه وسلم وصف المدينة فقال : « والذي نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة » ،
والمؤمن حلو يارب . فكيف خرج الماء مالحة ، قال عفا الله عنه ومد في عمره :
فألهمني ربّي أن ننزل بالمسورة مسافة أخرى ، فقلت : انزلوا بالمسورة إلى مسافة
أبعد ، قال ففعلوا ، فجاء الماء حُلَاوًا زَلَالًا ، وجاء أوفر مما أردنا ، والحمد لله
الذي بنعمته تم الصالحات .

وعلى الرغم من أني أصادقه من سنوات ، فإنه كاشفني من نحو عامين لأول
مرة بأنه كان يستمع لدرسي الذي كنت ألقيه بالحرم الشريف ، فكان يعجبه ما يسمعه
منّي ، فقال : يارب أشهدك أني أحب هذا الرجل فيك ، قال : ولم أصارحك بها
قبل ذلك ، فانظر إلى فضله وأدبه ، وهو رجل مبارك ، ومُقبِل على الله بهمة

الصالحين حتى إنه لا يصلى الصلوات الخمس إلا فى الحرم الشريف ، كما أنه يعتكف فيه العشر الأواخر من رمضان كل عام ، وينتق الكثير فى سبيل الله .

حفل مبارك :

وفى العام الماضى دعانا فى عيد الفطر إلى حفل بقصره المشيد فى بستانه ، فوجدنا سرادقاً كبيراً قد اجتمع فيه أحبابه من زوار الحرم الوافدين من البلاد الإسلامية المختلفة ، وتغنى المغنون على مسمعنا بالمدائح النبوية وذكرى المدينة المنورة ، وكان من بيننا نحن المصريين الشيخ سيد النقشبندى فتغنى بشعر العارف بالله سيدى الشيخ يوسف النبهانى الذى يقول فيه :

يا رعى الله طيبةً من رياض طاب فيها الهوى وطاب الهواء

وتغنى مغنى المدينة فقال :

يا عيدُ عُدَّتْ فهل عادت ليالينا وهل ترنم فى الصحراء حاديناً

وكان من بين الحاضرين أخى الصالح وزميلي الأستاذ أنور شلبي وكيل وزارة الخزانة ، فسرّه الحفل غاية السرور حيث لم يكن شهده معنا قبل ذلك .

دعاء نبوى للمدينة :

قال ابن إسحق :

« وحدثت عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبوبكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبى بكر فى بيت واحد فأصابتهم الحمى ، وكانوا يهدون وما يعقلون من شدة الحمى فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدنها

وصاعها^(١) وانقل وباءها إلى مهيعة (الجحفة وهي ميقات أهل الشام) .

. أقول : وقد استجاب الله دعوة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لتلمس حب المدينة بين جنبك قبل أن تذهب إليها ، فإذا رأيته وعشت فيها ، نسيت بها وطنك وكأنها الموطن الأصلي الذي نشأت فيه . أما بركة الطعام فباقية تشاهدها بنفسك ، وترى فيها المعجزة النبوية محققة ، وكنت في أول أمرى بالمدينة أطلب من صاحب الدار التي نزل فيها وهو السيد حامد بافقيه وهو من السادة الأشراف - رحمه الله رحمة واسعة - أن يشتري لنا أقة من اللحم ونحن خمسة رفقاء ، فيتعجب الرجل رحمه الله مما أطلب ويقول في لهجته المدنية اللطيفة : أقة ؟ لميش تعملوا بالأقة ، هذا كثير ؛ هنا المدينة فيها البركة بدعوة النبي ، فأقول له : وماذا تريد أنت يا عم حامد فيقول : نصف أقة وهو كثير على غداكم وعشاكم ، ثم تأكد لي صدق كلامه عملياً ، وتلك بركة طعامها ، أما حلاوته فحدث عنها ولا حرج ، فصلوات الله وسلامه على من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما أرق أهل المدينة حين كانوا يتغنون بمدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون في محافل ذلك السيد المبارك فيهزّوننا بقولهم :

خير البريه نظره إلبا
ما أنت إلا كثر العطيّه

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة ، اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو أمامة نقيبهم (أحد نقباء العقبة كما سلف القول) فقالوا له : يا رسول الله ، إن هذا قد كان منّا حيث قد علمت ، فاجعل منّا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم أخوالى (لأن الخزرج أخوال أبيه صلى الله عليه وسلم) وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم » ، فكان بنو النجار يزهدون بأن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

(١) يعنى بارك لنا في الطعام الذى يكال بالمد والصاع . والمد رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلاث عند أهل الحجاز ، والصاع أربعة أمداد عند الحجازيين .

المساجد المفضلة :

ورد في الحديث الشريف « لاتشدّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة » .

ويقول الإمام تقي الدين السبكي : ليس في الأرض بقعة لها فضلٌ لذاتها حتى تُشدّ الرحال لذلك الفضل غير البلاد الثلاثة ، قال : ومرادى بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكماً شرعياً ، وأما غيرها من البلاد فلا تُشدّ إليها لذاتها بل لزيارة أو لجهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات .

مسجد التقوى :

وقد أخرج الإمام مسلم رضي الله عنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسّس على التقوى^(١) قال : « مسجدكم هذا » .

وقال الإمام مالك إنه مسجد المدينة ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس في هذا ويأتونه أولئك من هنالك ؟ وقال تعالى : (وتركوك قائماً) فإنما هو هذا .

وقد أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صلّى في مسجدي أربعين صلاة كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب وبرئ من النفاق » .

أفضل البقاع :

وقال القاضي عياض رضي الله عنه : أجمعوا على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض ، وأن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض بعده ، ثم

(١) وهو المذكور في قوله تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) الآية .

اختلفوا في أيهما أفضل ، فذهب عمر وجماعة من الصحابة إلى تفضيل المدينة وهو قول مالك وأكثر المدنيين ، وذهب أهل الكوفة إلى تفضيل مكة وبه قال ابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك ، وإليه ذهب الشافعي .

أقول : وما من نفس مؤمنة إلا وتحنّ إلى كل من مكة والمدينة . حرسهما الله من كل سوء ، ففي مكة بيت الله الحرام ، وفي المدينة روضة نبينا المختار عليه الصلاة والسلام ، ولسان المشتاق يحنّ إلى كل منهما ويقول :

هي الدار ما شوق القديم بناقص إليها ولا دمعي عليها بجامدٍ
أو يقول :

روحي على بعض دور الحى حائمة كظامي الطير إذ يهفو على الماء
ويرحم الله الشيخ النبهي إذ يقول متشوقاً إلى المدينة المنورة :

يارعي الله طيبة من رياض طاب فيها الهوى وطاب الهواء
شاقني في ربوعها خير حي حل لا زينب ولا أسماء
حيث قبر الحبيب يعاوه من نو ر قباب أقلها الخضراء

بين مكة والمدينة :

وقد تنازع مدني ومكي في فضل مكة والمدينة . وتعصب كل منهما لبلده في شعر طويل ، فأجابهما ناسك كان يقيم بجدة مرابطاً فقال فيما قال - كما جاء في الفتوحات المكيّة :

إني قضيت على اللذين تماريا	في فضل مكة والمدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحق فافهموا	فالحكم وقتاً قد يجور ويعدل
يا أيها المدني أرضك فضلها	فوق البلاد وفضل مكة أفضل
أرض بها البيت المحرم قبلة	للعالمين بها المساجد تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها	والصيد في كل البلاد محل
وبها المشاعر والمناسك كلها	وإلى فضيلتها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم مترعاً	والحجر والركن الذي لا يجهل

والمشعران ومن يطوف ويرمُل
وبها المسىء عن الخطيئة يُسأل
أرضاً بها ولد النبي المرسل
وسرى به الملك الرفيع المنزل
أو من قرئش ناشئ أو مكهل
لكنهم عنها نبوا فتحولوا
أن المدينة هجرة فتحملوا
خير البرية حقكم أن تفعلوا
فضل قديم نوره يتهلل
قلنا كذبت وقول ذلك أزدل
من كان يجهله فلسنا نجهل
والمنبر العالى الرفيع الأطول
عمر وصاحبه الرفيق الأفضل
سبقت فضيلة كل من يتفضل
أمسوا ضياء للبرية يشمل
وودادها حق على من يعقل
تروى بها وعلى المدينة تسبل

والمسجد العالى المحجر والصفاء
وبمكة الحسنات يضعف أجرها
ما ينبغي لك أن تفاخر يا فتى
وبها أقام وجاءه وحى السما
هل بالمدينة هاشمى ساكن
إلا ومكة أرضه وقراره
وكذاك هاجر نحوكم لمأ أنى
فأجرتمو وقرئتموا ونصرتمو
فضل المدينة بين لأهلها
من لم يقل إن الفضيلة فيكمو
لا خير فيمن ليس يتعرف فضلكم
فى أرضكم قبر النبي وبيتته
وبها قبور السابقين بفضلهم
والعرة الميمونة اللاتى بها
آل النبي بنو على إنهم
إننا لنهواها ونهوى أهلها
ساق الإله ليطن مكة ديمة

مزايا المدينة المنورة :

هذا ومن مزايا المدينة المنورة أنها فتحت بالقرآن الكريم ولم تفتح بالسيف ،
وأن الله تعالى اختص بها رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من
بيتك بالحق ..) أى المدينة لاختصاصها به اختصاص البيت بساكنه ، وقيل من بيته بها ،
وقد سماها الله حسنة فى قوله تعالى (لنبؤنهم فى الدنيا حسنة . .) أى (١) مباعة
حسنة وهى المدينة ، وقد حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف
« من أخاف أهل حرمي أخافه الله » وفى حديث آخر « حرم إبراهيم مكة وحرمي

(١) أى هيا لهم المدينة سكناً .

المدينة» ، وترابها شفاءٌ للحديث الشريف « ترابها شفاء من كل داء » وكانت تسمى « يثرب » فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طيبة » ، وفي حديث آخر « إن الله سمى المدينة طابه » وفي خبر : « والذي نفسى بيده إنَّ تربتها لمؤمنة » وفي آخر : « إنها مكتوبة في التوراة مؤمنة » وقد سمّاها الله في كتابه الكريم « مُدْخَلٌ صدق » وذلك في قوله تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) . فمدخل الصدق : « المدينة » ، ومخرج الصدق : « مكة » . وتأمل كيف قدم الله المدخل على المخرج مع أن المخرج في الترتيب مقدم على المدخل ، والسلطان النصير : « هم الأنصار » كما روى عن زيد بن أسلم . وصار اسم « المدينة » علماً عليها ولا يستعمل إلا معرفة . والنكرة اسم لكل مدينة . ونسبوا لكل مدينتي ، وللمدينة المنورة مدّتي ، للفرق بين النسبتين .

المدينة وأهلها :

وفي الحديث الشريف : « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلَمْ يَمُتْ » ، ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك .

وناهيلك بقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَحْزَنَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ أَحْزَنَ مَا بَيْنَ جَنَّتَيْ » أى قلبي وروحي . فانظر إلى عطفه وغيرته صلى الله عليه وسلم على جيرانه بالمدينة المنورة .

وقد كان صديقنا الكريم الذى كنا نزل في داره وهو السيد حامد بافقيه طيّب الله ثراه . يعتز بهذا الجوار السعيد ويكرر كثيراً على مسمعنا : نحن في كفالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أكرم بقعة :

ولا بن الجوزى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اختلفوا في دفنه ، فقال على كرم الله وجهه : ليس في الأرض بقعة أكرم رسول الله في القرآن

على الله من بقعة قَبْضَ فيها نفس حبيبه صلى الله عليه وسلم ، قال الإمام السهمودي في كتاب خلاصة الوفاء معقباً ، فهذا أصل الإجماع على تفضيلها لرجوع الباقي إليه ولقول أبي بكر رضى الله عنه حينئذ : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يُقْبَضُ النبي إلاّ في أحبّ الأمكنة إليه ، رواه أبو يعلى ، قال وأحبُّها إليه أحبُّها إلى ربّه لأن حبه تابع لحب ربه ، قال : وقد سلكت في تفضيل المدينة هذا المسلك وقد صحّ قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد » أى بل أشد ، كما رُوِيَ به ، وأُجيبت الدعوة حتى كان يُحَرِّكُ (١) دابته إذا رآها من حبها وقال : « ما على الأرض بقعة أحبّ إلىّ من أن يكون قبرى بها منها » .

ويقول الإمام السهمودي في كتابه المذكور : قال عمر لعبد الله المخزومي : أنت القائل : مكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأمنه وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله وبيته شيئاً . ثم كرر عمر قوله الأول فأعاد جوابه فأعاد له عمر : لا أقول فى بيت الله وحرمة شيئاً ، فأشير إلى عبد الله فانصرف . وقال الإمام السهمودي رضى الله عنه : قيل للإمام مالك أيما أحبّ إليك المقام هنا يعنى بالمدينة أو بمكة ؟ فقال : « ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلاّ سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل عليه السلام ينزل من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟ » . وأضاف الإمام السهمودي قائلاً : وقد ثبت فى الأحاديث تفضيل الموت بالمدينة فيثبت تفضيل سكناها لأنها طريقه .

وأضاف الإمام السهمودي يقول كذلك : وفى الصحيحين « أُمِرْتُ بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » ، وفى صحيح مسلم حديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هَلُمَّ إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . والذى نفسى بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلاّ أخلف الله فيها خيراً منه » وفيه إشعار بدم الخروج منها مطلقاً وهو عام أبداً كما نقله المحب الطبرى عن قوم وقال إنه ظاهر اللفظ . وفى حديث الصحيحين « إن الإيمان لياً رزُ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » أى تنقبض وتنضم وتلجأ مع أنها أصل انتشاره . فلكل مؤمن من نفسه سائق

إليها في جميع الأزمان لحبه في ساكنها صلى الله عليه وسلم .

ولأبي يعلى عن العباس رضى الله عنه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فالتفت إليها وقال « إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك » .

وفي الصحيحين « من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شافعياً يوم القيامة » وفي صحيح البخارى مرفوعاً « لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع المِلْحُ في الماء » . ولمسلم « من أراد أهل هذه البلدة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء » . ولئن كان لمكة مزية العدد (أى في الحسنات) فللمدينة مزية البركة والمَدَد . ولئن كان لمكة جوار بيت الله تعالى فللمدينة جوار حبيب الله صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الخلق على الله تعالى . وفي الصحيحين « اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَتِي ما جعلت بمكة من البركة » . وفي الصحيحين أيضاً « اللهم باركْ لهم في مَكِّيَّاتهم وباركْ لهم في صَاعَهم وباركْ لهم في مُدَّهم » . ولمسلم « اللهم باركْ لنا في مدينتنا . اللهم باركْ لنا في صَاعنا ، اللهم باركْ لنا في مَدَننا ، اللهم باركْ لنا في مدينتنا ، اللهم اجمع مع البركة بركتَيْن » . وفي الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها لا يدخلها الطاعون ولا الدَّجَال » .

وفي الصحيحين حديث « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وفي رواية — ودعا لأهلها — ، وإنى حرمتُ المدينة ، كما حرم إبراهيم مكة » . وللبخارى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه « إن الله حرم ما بين لابتى المدينة على لساني » قال وأتى النبي صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال : « أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم » ثم التفت فقال : « بل أنتم فيه » . . ولمسلم « المدينة حرم ما بين غير إلى ثور » (وهما جبلان بها) .

ولأبي داود مثله وزاد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يُخْتَلَى ^(١) خلأها ^(٢) ، ولا يُسْتَفَرَّ صيدها ، ولا يَلْتَقِطُ لِقْظَتِهَا إِلَّا من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إِلَّا أن يعلف رجل بغيره » .

(١) يختل : أى يقطع .

(٢) الخلا (مقصوراً) : النبات الرطب الرقيق .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لو وجدت الظبا بين لابتيها ما ذعرتها . وجعل
اثني عشر ميلا حول المدينة حمى . وفى الصحيحين عن عبد الله بن
زيد « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » وللبخارى عن أبي هريرة مثله
وزاد « ومنبري على حوضي » . وللبخارى ومسلم عن ابن عمر « ما بين قبري ومنبري
روضة من رياض الجنة » .

طريق النور :

أقول : وإذا أردت أن ترى طريق النور بنفسك . فاذهب إلى أرض الحجاز ،
واسلك الدرب الذى سلكه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون إلى المدينة
المنورة . وانظر إلى طوله وأنت تقطعه بالسيارة السريعة . وقدر كسم تحمّلوا
فى قطعه على الإبل من المشقة فى عزم أهل الإيمان وهمة أهل اليقين ، وإذا
استرحت قليلا فى بدر فاستشّق رائحة الجنة عند شهدها . وتطلّع إلى الجبال بينها
وبين المدينة . وإلى خشونة الصخور على جانبي الطريق المرصوف . وقدر
لسفك الصالح جهادهم فى حماية العقيدة التى وصلت إليك منهم وأنت ناعم
البال فى أمن وإيمان . واستغفر لهم كما أمرك الله تعالى . واستشّق روائح المدينة
وتطلّع إلى مائها وهوائها ونورها .

ولقد كنت أسير فى ذلك الدرب المبارك وحن ميعاد العصر . فأويت إلى
مكان فى جانب الطريق فصلت العصر مع أصحاب لى على الرمال . وإذا بى
أتذكر فجأة قول الإمام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لدن	وادی قُبَاء إلى حمى أم القرى
وتوخ آثار النبی فضع بهما	متشرفاً خديك فى عَفَرِ الثرى
وإذا رأيت منازل الوحي التى	نشرت على الآفاق نوراً أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهه	مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يرى

فعملت بنصيحة الإمام الذائق . ووضعت خدى على التراب الذى مشى
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض الطيبة ، التى أشرق منها على يديه
الكريمتين نور الإسلام . وكيف لا أفعل وقد قال أمير المؤمنين عمر رضى الله

عنه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أنه أقسم بالتراب الذى مشى عليه قدماك ، فقال تعالى : (لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد) ، وكيف لا أفعل وقد قال حبر الأمة وحجتها ابن عباس رضى الله عنه : ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله عز وجل أقسم بحياة أحد غيره — يشير ابن عباس إلى قوله تعالى (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) أى وحياتك إنهم يتحIRON : ويرضى الله عن الإمام البوصيرى إذ يقول فى برده المباركة :

فبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كُلِّهِمْ .

الفصل الثاني

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

فضل مثواه صلى الله عليه وسلم :

كان صلى الله عليه وسلم يشدد على نفسه في رعاية التسوية بين نسائه تطييباً لقلوبهن وكان يقول أين أنا اليوم ؟ أين أنا غداً ، وكان في مرضه الذي توفي فيه يُطاف به محمولاً على بيوت أزواجه إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت السيدة عائشة وبقى حتى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى ودفن صلى الله عليه وسلم في حجرتها، لأن الأنبياء والمرسلين يدفنون حيث يقبض الله أرواحهم ، وقد قالت سيدتنا عائشة : فلما كان يومى قَبَضَهُ اللهُ تعالى بين سحري^(١) ونحري صلى الله عليه وسلم . والبقعة التى دفن فيها صلى الله عليه وسلم هى أفضل بقاع الأرض ولذلك قال سيدى أبو محمد البكرى رضى الله عنه :

جَزَمَ الجميعُ بأن خيرَ الأرضِ ما
قد حاطَ ذاتِ المصطفى وحوها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت زكا مأواها

حرمته صلى الله عليه وسلم :

هذا ، واعلم أن حرمته صلى الله عليه وسلم وهو في قبره كحرمته صلى الله عليه وسلم في حياته ، ففي كتاب الشفاء للقاضى عياض بسند جيد عن ابن حميد قال :

ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالِكًا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال مالِك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ،

(١) السحر : الرثة تريد أنه قبض وهو على صدرها ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدَبَ قَوْمًا فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) وَمَدَحَ قَوْمًا فَقَالَ : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) .
وإن حرمة ميتاً ، كحرمة حيّاً فاستكان أبو جعفر .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أتيت المدينة وأقمت بها فإن ميت دفنت في الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر . فقال : والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب إلا النار أحب إلى من أن يعلم أنى نفسى لذلك أهلا .

الموت والحياة في البرزخ :

يقول الإمام الزرقاني رضى الله عنه في شرح المواهب اللدنية :

فإن قلت القرآن ناطق بموته عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إني امرؤ مقبوض » ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك ، فأقول :
أجاب الشيخ تقي الدين السبكي بأن ذلك الموت غير مستمر ، وأنه صلى الله عليه وسلم أحيى بعد الموت حياة أخرى ، ولا شك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء ، وهي ثابتة للروح بلا إشكال ، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لا تبلى ، وعود الروح إلى الجسد ثابت في الصحيح لسائر الموتى ، فضلاً عن الشهداء ، فضلاً عن الأنبياء ، وإنما النظر في استمرارها في البدن^(١) ، وفي أن البدن يصير حياً كحالته في الدنيا أو حياً بدونها وهي حيث شاء الله تعالى ، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عاды لا عقلى ، فهذا مما يجوزّه العقل ، فإن صح به سمع أتبع ، وقد ذكره جماعة من العلماء ويشهد له صلاة موسى في قبره كما ثبت في الصحيح ، فإن الصلاة

(١) بدن الإنسان جسده ، وقوله تعالى (فالיום ننجيك ببدنك) . أى ننجيك يا فرعون بجسد لا حياة فيه .

تستدعي جسداً حياً ، وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب ، وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها ، بل يكون لها حكم آخر ، فليس في العقل ما يمنع من إثبات الحياة الحقيقية لهم ، وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ، بل ولسائر الموتى كما ورد في الأحاديث .

أقول : وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون كما دل على ذلك كتاب الله فكيف بالأنبياء والمرسلين ، وكيف بأمير الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم . وقول الله تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً) ليس مقصوداً على حياته الشريفة وفي الحديث الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

ولأبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة « ما من أحد يسلم على إلا رَدَّ الله على روحى حتى أَرُدَّ عليه السلام » . وقد صدر الإمام البيهقي رضى عنه باب الزيارة بهذا الحديث الشريف . واعتمد على ذلك جماعة منهم الإمام أحمد رضى الله عنه لِيَتَضَمَّنْهُ فضيلة رده صلى الله عليه وسلم وهي عظمة ؛ واستدل الإمام البيهقي بهذا الحديث على حياة الأنبياء . ويقول الإمام السهوي رضى الله عنه : فهو صلى الله عليه وسلم يسمع مَنْ يُسَلِّمُ عليه عند قبره ويرد عليه عالماً بحضوره عند قبره . وكفى بهذا فضلاً حقيقةً بأن يُسْتَفَقَّ فيه ملك الدنيا حتى يُتَوَصَّلَ إليه . ولابن النجار عن إبراهيم بن بشَّار : حججتُ في بعض السنين فجتُ المدينة فتقدمتُ إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

وجاء في تذكرة القرطبي عن شيخه أن الموت ليس بعلوم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء^١ عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا ، وإذا كان هذا في الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى .

وفي مناسبة حياة الشهداء أقول إنى بحمد الله رأيت الوصف الذى وصف الله به الشهداء فى رؤيا منامية سعدت فيها - وكنت عندئذ بالمدينة المنورة - برؤية شهيد فرح جداً مستبشر للغاية ، يتحرك حركات سريعة وقوية من الفرح والاستبشار ، وتعجبت من منظره ولم أعرفه ، فقال لى شخص فى المنام : هذا عبد الله بن^(١) راحة ، وقمت من نوى مسروراً بهذه الرؤيا ، ولم أكن أذكر اسمه الأول « عبد الله » إنما كنت أعرفه باسم « ابن راحة » فسألت أحداً وقتئذ عن اسم ابن راحة الكامل فقال لى « عبد الله » فقلت صدق الله تعالى فى وصفه للشهداء (أحياء عند ربهم) ، وفى قوله فى الأنصار رضى الله عنهم (يحبون من هاجر إليهم) .

حياته صلى الله عليه وسلم فى قبره الشريف :

ويقول الحافظ السيوطى رضى الله عنه فى كتابه « تنوير الحلك بامكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة » بعد استيعابه لأكثر نقول العلماء والأحاديث الدالة على إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام واليقظة ما يأتى :

قد تحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حتى بجسده وروحه ، وأنه يتصرف^(٢) حيث شاء فى أقطار الأرض وفى الملكوت وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شىء ، وأنه يغيب عن الأبصار كما غُيِّبَتِ الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم ، فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عن أمر كرامته برؤيته رآه على هيئته التى هو عليها لا مانع من ذلك ولاداعى إلى

(١) وهو الأنصارى الشاعر ، وهو صاحب اللواء فى مؤتة بعد زيد وجعفر رضى الله عنهم .

(٢) أى يتصرف بإذن الله وقدرته فيما مكنه الله فيه ، ولتذكر قوله تعالى مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (وكان فضل الله عليك عظيماً) .

التخصيص برؤية المثال^(١) .

ويقول الإمام نور الدين الحلبي رضى الله عنه في رسالته المسماة « تعريف أهل الإسلام والإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه مكان ولا زمان » ما يأتي :

ألا ترى أن الرائي له يقظة أو مناماً في أقصى المغرب يوافقون في ذلك الرائي له كذلك في تلك الساعة بعينها في أقصى المشرق ، فمتى كان ذلك مناماً كان في عالم الخيال والمثال ، ومتى كان يقظة كان بصفته في الجمال والجلال وأعلى غايات الكمال كما قال القائل :

ليس على الله بِمُسْتَنَكَّر أن يجمع العالم في واحد

ومن الأدلة التي ساقها الإمام الحلبي رضى الله عنه قوله :

١ - ثابت عند إمام الأمة الحافظ الإمام البخاري وغيره أن الملكيين يقولان للمقبور : ما تقول في هذا الرجل ؟ واسم الإشارة لا يُشار به إلا للحاضر .

٢ - إن غالب الأولياء والعارفين كانوا يجتمعون غالباً بسيد المرسلين يقظة ومناماً ، وكان العارف بالله خليفة بن موسى كثير الاجتماع به ، واجتمع به في ليلة واحدة سبعة عشر مرة وقال له : يا خليفة لاتَمَلْ^(٢) مِنَّا فقد مات كثير من الأولياء بحسرة رؤيتنا .

فالحجابُ من قِبَلِنَا بِمُوجِبِ مَسَاوِينَا لا من قِبَلِهِ صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى فارق نفسه ولو بالنوم وأغمض عينيه يراه إذا قَسَمَ اللهُ تعالى له ذلك ، ومتى قتلها بقمعها وأماتها بردعها لم يبق بينه وبينه حجاب لا مناماً ولا يقظة :

... وكان السيد أبو العباس أحمد المرسى يقول : لو حُجِبَتْ عني رؤية النبي صلى الله عليه وسلم طرفة أعين ما عدت نفسي من المسلمين .

(١) عالم المثال هو العالم الذي تمثل فيه جبريل لمريم عليها السلام في شكل بشر مع أنه ليس من البشر والأرواح القوية يعطيها الله قوة التمثل .

(٢) أى من كثرة رؤيتك لنا وظهورنا لك ، وهو تدليل منه لذلك الولي المبارك .

٣- من الممكن المعقول المشاهد في رأى العين أن يجعل الله تعالى نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم بمكان كمكان جعل فيه البدر فيراه الذى فى أقصى المشرق كما يراه الذى فى أقصى المغرب وهو فرد (أى بدر واحد) وضوؤه ملاء الأكوان ، وكذلك عين الشمس والزهرة وبقية النجوم فإنه قد استوى فى رؤيتها كل من كان على ظهر الأرض ، لأن الله تعالى قد جعل لها مكاناً يقتضى ذلك (أى هيأها لأن يراها من كان على ظهر الأرض) فلا بدّ أن يكون قبر النبى صلى الله عليه وسلم بطيبة كذلك ، ولا غرو فى أن يجعل الله تعالى شبحاً^(١) من نبينا بغير طيبة أيضاً يرى منها ويُشاهد كذلك ما لم يكن الرأى أعمى البصيرة . . . وقال رضى الله عنه شعراً :

انظر إلى المختار كيف وجوده ملاء السما والأرض والأكوانا
فراه مثل البدر فى كبد السما وضياؤه ملاء الوجود عيانا

٤- ومن البراهين على ذلك أيضاً أنه يجوز ويمكن ويتعقل أن يجعل الله تعالى العوالم العلوية والسفلية بين يلى النبى صلى الله عليه وسلم كجعله تعالى الدنيا بين يلى سيدنا عزرائيل ، فإنه سئل كيف تقبض روح رجلين حضر أجلهما معاً أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب فقال : إن الله تعالى قد زوى لى الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يلى كالفصعة بين يلى الآكل أتناول منها ما شئت .

٥- ومن البراهين أيضاً على ذلك أن أمر البرزخ لا يقاس على غيره ، ألا ترى لِمَسَكَتِ السُّؤَالِ مع تناهى عِظَمِهَا فى أَصْبِقِ اللحود ، ومن أين يأتیان ؟ ومن أين يذهبان ؟ وكيف يسألان ميتين أو أمواتاً فى وقت واحد ، منهم من هو فى أقصى المشرق ومنهم من هو فى أقصى المغرب . . ؟

ويقول الإمام نور الدين الحلبى كذلك فى رسالته المذكورة :

وعند أبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولا يتمثل الشيطان بى » ،

(١) أى شخصه صلى الله عليه وسلم ..

ومعنى هذا الحديث التبشير بأن من فاز من أمته برؤيته في المنام لا بدَّ ألبته إن شاء الله أن يراه في اليقظة ولو قبيل الموت بهنيهة ، ويسلم إن شاء الله تعالى العبد في ذلك الوقت من المقت^(١) ، إذ هو وقت الحاجة^(٢) .

أقول : وقد ذكر العارف ابن أبي جمرة رضى الله عنه في كتاب بهجة النفوس أن ابن عباس رضى الله عنهما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام بعد انتقاله للرفيق الأعلى ، ولما استيقظ دخل على خالته ميمونة أم المؤمنين وأخبرها بالرؤيا فناولته مرآة فذهب ينظر فيها فلم ير وجهه بل رأى النبي صلى الله عليه وسلم بصورته التي يعرفها .

٦- ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضاً أن الله تبارك وتعالى نصَّبه شاهداً على أعمال العباد خيراً وشرها ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) ، والشاهد لا بد أن يكون حاضراً للمشهود عليه وناظراً للمشهود إليه فعلم أنه ملأ كلَّ عالم ، وحاضر في كل مكان . فإن قيل قد قال تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ) . وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) . فقد سوى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الأئمة في معنى الشهادة ، وسوى بينه وبين الأنبياء في ذلك المعنى أيضاً ، فالجواب إن شاء الله تعالى أنه لا تسوية لأنه في الآية الأولى قال (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال في الآية الثانية : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) . وورد أن هذه الأمة تشهد على جميع الأمم وتشهد لأنبيائها بالتبليغ ونبينا يزكِّيها فلا مساواة به ولا أحد في درجته . وأما شهادة الأنبياء فلا إشكال فيها لأنهم موجودون بالأجسام في قيد الحياة بين أظهر أممهم لأنهم شاهدون وحاضرون حساً ومعنى . وأما شهادة هذه الأمة فإنما هي من باب الشهادة على الشاهد ، لأنها إنما تلقَّت ذلك من القرآن العظيم الصادق الوارد على لسان النبي المصدق . فتتبيَّن بهذا بأنه لما كان كل رسول

(١) أى يسلم من غضب الله تعالى .

(٢) أى وقت احتياج العبد إلى مرضاة الله تعالى .

إذا مات انتهت شريعته وأرسل رسول غيره ، ولم يكن نبينا كذلك بل شريعته مستمرة ودعوته قائمة باقية إلى يوم القيامة ومعها وبعدها إذ لاني بعده ، فتبين أن شهادته صلى الله عليه وسلم بموجب حضوره في جميع العوالم وامتلاء الكون والزمان به ، فكان مثاله كما أسلفناه وكما أشرنا كبدر في سماء علو الفضل ونحن تحته سائرون في ضوء نوره ، متى رفعنا رءوسنا إليه ونحن في شدة العند أو المشي أو التأنى أو جلوسنا أو نمنا أو اسنيقظنا نراه معنا فوق رءوسنا ، ولو مشينا إلى أقصى المشرق ، ومشى آخرون إلى أقصى المغرب ، وركب آخرون السفن في بلح البحار ، وصعد آخرون الجبال ، وسلك آخرون القفار ، كل ذا ونبيتهم محمد صلى الله عليه وسلم حاضر معهم كحضور البدر مع هؤلاء كلهم .

وأقول : بعد هذا لا تستكثر فضل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له ربه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) . والعالمون هم كل ما سوى الله تعالى ، وإذا كانت رحمة الله شملت العالمين مع اختلاف أجناسهم فلا تعجب أن شرفه الله تعالى بصلاته عليه هو وملائكته ، كما أمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه بقوله تعالى :

(إِنْ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ، وما أعظم شرفه بهذه الصلاة الدائمة على مر الدهور ، فحدث عن فضله ولا حرج ، وصدق سيدي العارف الشيخ أحمد الحلواني (والد سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني طيب الله ثراهما) . إذ يقول في همزيته رضي الله عنه :

فليس في القوم من يعلو عليه ولو	نال الثريا ولا في القوم أكفاء
أزكى النبيين أخلاقاً مطهرة	وعنصر طيب تنميه أضواء
لا مجد والله إلا وهو مقتبس	من مجده ولكل منه إنشاء ^(١)

(١) يشير إلى حديث : أول ما خلق الله نوري ومن نوري خلق كل شيء ، ويقول رضي الله عنه في قصيدة أخرى :

أنشأ نوراً ساطعاً قبل الوري	فرداً لفرد والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته	من نورك السامى فيا عظم الكرم

وقد تُضَيَّء مصابيحٌ معددةٌ
وليس بدُّ عَدَاةِ تمام الأنبياء به
وَهَبَهُ نَجْلاً أما نالوا به شرفاً
فَزَكَ آباءُهُ طَرّاً وكن بطلا
يا سيدى يا رسولَ الله معذرة
وبى إليك حنين طالما ارتجفت
وأنت أرحم بى منى وإن كثرت
دامت عليك صلاة الله واصله

من واجد وهو لا ينفك وضاء
فَلْيَلْأَلْأَلْ بالإنعام (١) لآلاءُ
ياحسن ما شَرُفْتَ بالنَّجْلِ (٢) آباء
فى حُبِّهم فهمُ القومِ الأَجِلَاءِ
فإن كَفَيْتَ فى مَدْحِ حَيْكَ شِلاءِ
منى به أعْظُمُ رَقَّتْ وأحشاء
جرائمى وَرَحِمِ الحَيَّ مَعْطاء
مع السلام كذا الآلُ الأَوْدَاءُ

زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وروى الدارقطنى والبيهقى وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ زار قبرى وجبت له شفاعتى » ومعنى وجبت أنها ثابتة لا بد منها بالوعد الصادق

ويقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه : وأفاد بقوله له « أنه يختص بشفاعة ليست لغيره ، إما بزيادة النعيم ، وإما بتخفيف الأهوال عنه ، وإما بأن يدخل الجنة بغير حساب ، وإما بغير ذلك ، وفيه بشرى بموته مؤمناً .

وللدارقطنى والطبرانى عن ابن عمر : « من حج فزار قبرى بعد وفاتى ، كان كمن زارنى فى حياتى » .

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« لِيَهْبِطَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا وَإِمَامًا مُقْسِطًا ، وَلَيْسَلُكُنَّ فَجَاءً

(١) أى ختمت برسائه صلى الله عليه وسلم الرسالات السماوية فكانت مسك الختام وضياء كل ظلام لأنها جاءت بعد الرسالات ، فانت نوراً على نور .

(٢) ولئن كان ابناً من أبناء المرسلين قبله (لأنه صلى الله عليه وسلم من سلالة إبراهيم ومن ذرية إسماعيل) عليهم جميعاً صلوات الله فقد نالوا به شرفاً كبيراً حيث كانت رسالته أتم الشرائع وأعمها وأبقاها على الزمن وكان صلى الله عليه وسلم أكثرهم تبعاً .

حاجبا أو معتمراً، وليأتين قبري حتى يسلم عليَّ ولأردنَّ عليه « صححه الحاكم وسلكه الذهبي .

ويقول صديقي فضيلة الشيخ أحمد مرسى تعليقاً على الحديث الشريف المذكور : وهو يفيد سُنَّةَ زيارة القبر الشريف ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة سيدنا عيسى له في قبره وأقره^(١)، ويضيف فضيلته قائلاً : ولم يتفطن أحد لهذا الاستدلال قبلي والله الحمد والمنة .

وقد قال الإمام السهوي : روى أحمد بسند حسن : أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً^(٢) واضعاً وجهه على القبر ، فأخذ مروان برقبته ثم قال : هل تدري ما تصنع ؟ فأقبل عليه فقال : نعم ، إني لم آت حجراً ، إنما جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم آت الحجر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تيكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله » .

وجاء في « جواهر البحار » نقلاً عن المقرئ صاحب « نفع الطيب » حكاية طريقة وهي : ذكر جماعة أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والحجاز وفاتح البلاد ومنقذها من عبدة الأصنام ، وهو من أجل ملوك الإسلام ، أهديت له مروحة مكتوب في أحد وجهيها :

هذه هدية ما أهدى مثلها لك ولا لأبيك ولا لأحد من الملوك ، وكانت الهدية من شريف المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام ، فغضب السلطان فقال له حامل الهدية ، أرجو أن تقلب الوجه الآخر ، فقلبه فوجد فيه هذين البيتين :

أنا من نخلة تجاور قبراً ساد من فيه سائر الخلق طراً
شملتني سعادة القبر حتى صرت في راحة ابن أيوب أقراً^(٣)

(١) أي لم يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم على زيارة سيدنا المسيح عليه السلام بل أقرها ووافق عليها .

(٢) قالوا إنه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

(٣) أي يقرأ السلطان خبري فيما هو مكتوب .

فقال السلطان صلاح الدين : صدق والله ، وفرح بها ، ووضعها على محاجرهِ^(١) وجعلها خير متاجره .

وفي هذه المناسبة أذكرك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة قبل أن يُصنع المنبر ، فلما تحول صلى الله عليه وسلم إلى المنبر حنَّ الجذع وأنَّ لفراقه صلى الله عليه وسلم ، فختَّيره صلى الله عليه وسلم بين أن يُغرس ويؤرق ، وبين أن يصبر ويكون في الجنة ، فاختار أن يصبر ، وفي ذلك يقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه :

والجذع حنَّ وخار إذ فارقتَه فجبرته ونحوه عندي نغمٌ
فالمرءُ إن لم تعرَّه لك هزَّةٌ كالجذع فهو مُضَلَّلٌ أعمى أصمٌ
وأذكر واقعة طريفة كانت لى مع أخى فى الله المرحوم السيد بكرى حامد الموظف السابق بالبريد ، فقد كان محتفلاً فى بيته كعاداته السنوية بذكرى المولد النبوى الشريف ، وكان على رأس الحفل سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه ، فأمرنى أن أقول كلمة فى الذكرى العطرة ، فكان فيما قلته من الشعر البينان المذكوران ، فَتَهَيَّيْتُ الأخ بكرى وأقبل فى سكرة النشوان كأنما يريد أن يضربنى ، ثم ألقى بنفسه على الأرض ، وأرغى كالإبل ، واضطربت رجلاه فصارتا تتحركان يميناً وشمالاً ، فَسَكَتُ عن الكلام ، وفكوا عنه رباط الرقبة وبعد قليل قال سيدى الشيخ : لقد سَكَتَ فَتَكَلَّمْ ، فأتممت حديثى ، وكنت أمزح معه بعدها وأقول له : يا سيد بكرى ، تريد أن تضربنى وأنا ضيف عليك فى بيتك ، فكان يقول : إني لا أجن إلا حين أسمعك تتكلم ، اللهم ارحمه وارحم أسلافنا رحمة واسعة ، واغفر للأولين منا والآخرين ، يا أكرم الأكرمين وأجود الأجودين .

ويقول بعض العارفين : إني والله أجِدُ محبته صلى الله عليه وسلم فى قلبى وروحى وجسمى وشعرى وبشرى^(٢) كما أجِدُ سريان الماء البارد فى وجودى إذا شربته بعد الظمأ الشديد فى الحر الشديد ، وَحُبُّهُ صلى الله عليه وسلم فرض واجب على كل مؤمن ، قال تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقال صلى الله عليه وسلم :

(١) أى وضع المروحة على عينيه احتراماً . (٢) البشر وظاهر جلد الإنسان .

« ان يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده »، فإذا لم تجد هذه المحبة التي وصفتها لك فاعلم أنك ناقص الإيمان ، فاستغفر الله ، وتضرع إليه وتب من ذنوبك ، وتولع بدوام ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والتأدب معه ، والقيام بما أمر مع اجتناب ما نهى ، لعلك تنال ذلك فتحشر معه ، لأنه صلى الله عليه القائل : « المرء مع من أحب » ، وقد قال الشهاب الخفاجي في كتابه « ربحانة الألباب » : اعلم أنه في حديث صحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنت أحبُّ إلىَّ من نفسي وأهلي ومالي ، وإني إذا ذهبت لداري لا تطيب نفسي حتى آتيك وأراك ، فإذا متَّ أنت كنت في أعلى مقام فأخشى ألا أراك ، فلم يُعجبه الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله عز وجل :

(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

ولو تأمل هؤلاء الفاترون في محبته صلى الله عليه وسلم لوجدوا أنهم في صلاتهم يسلمون عليه في التشهد ، فهل هم يُسلمون بقولهم (أيها النبي) على حي حاضر أو على ميت غائب ؟ وإذا كان سلامهم في التشهد على ميت غائب فإن سلامهم يكون عبثاً وتبطل به الصلاة .

وأقول : ألم يتدبر الفاترون في محبتهم قول الله تعالى في سورة الكهف : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . ألا يلاحظون أنَّ كلباً غير مكلف صحب أهل الكهف الصالحين فعده الله منهم بفضله ، ولم يقل ثلاثة والرابع الكلب بل قال رابعهم ، وسادسهم وثامنهم ؛ وجعل من شرف ذلك الكاب الذي أحب الصالحين وازمهم أن يذكر بشرف محبتهم وصحبته على ألسنة العابدين في المحاريب . فكيف بالمؤمن الذي يلتزم محبة رسول الله وشرعه .

الزيارة وشدة الرحال :

ويقول الإمام السهودي : وإذا ثبت أن الزيارة قُرْبَةٌ ، فالسفر إليها قُرْبَةٌ^(١) كذلك ، وقد ثبت خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لزيارة الشهداء ، وقد أطبق (اتفق) السلف والخلف وأجمعوا عليه . أما حديث « لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ ، الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » فعناه لَا تُشَدُّ إِلَى مَسْجِدٍ لِفَضِيلَةٍ ، لما في رواية لأحمد بسند حسن عن أبي سعيد الخدري « لَا يَنْبَغِي لِلْمَطْطِيِّ أَنْ تُشَدَّ رِحَالُهُ إِلَى مَسْجِدٍ يَبْتَغِي فِيهِ الصَّلَاةَ غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » ، وللإجماع على شد الرحال لَعَرَفَةِ لِقَضَاءِ النَّسْكِ (الحج) وكذلك للجهاد والهجرة من دار الكفر وللتجارة ومصالح الدنيا^(٢) .

الزيارة سنة واجبة :

وقد كره الإمام مالك رضي الله عنه أن يقال زُرْنَا^(٣) قبر النبي صلى الله عليه وسلم لأن الزيارة من شاء فعلها ومن شاء تركها ، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم واجبة قال عبد الحق يعني من السنن الواجبة ، وقال السادة الحنفية زيارته صلى الله عليه وسلم من أفضل المندوبات والمستحبات بل تَقَرُّبُ من الواجبات . وقال القاضي ابن كج من أصحاب الشافعية : إذا نذر أن يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم فعندي أنه يلزمه الوفاء وجهاً واحداً ، وإذا نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان ، والقطع به هو الحق لأنه قُرْبَةٌ مقصودة للأدلة الخاصة فيه ، وقد وجب من جنس ذلك الهجرة إليه في حياته صلى الله عليه وسلم .

آداب الزيارة :

ومن الآداب التي يراعيها الزائر إذا دخل إلى حرم المدينة أن يقول بعد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أَيْ يَتَقَرَّبُ الْمُؤْمِنُ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

(٢) فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْحَدِيثِ النَّهْيُ وَإِنَّمَا هُوَ لِبَيَانِ فَضِيلَةِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ عَمَّا عِداهَا ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشُدُّ رِحَالَهُ إِلَى مَسْجِدِ قِبَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ الثَّلَاثَةِ .

(٣) كَأَنَّهُ يُودُ أَنْ يَقُولَ الزَّائِرُ : أَدِينَا وَاجِبَ الزِّيَارَةِ بَدَلًا مِنْ زُرْنَا ، لِأَنَّ الزِّيَارَةَ سُنَّةٌ وَاجِبَةٌ .

اللهم إنَّ هذا هو الحرم الذى حرَّمته على لسان حبيبك ورسولك صلى الله عليه وسلم ودعاك أن تجعلَ فيه من الخير والبركة مثليَّ ما هو بحرم بيتك الحرام فَحَرِّمْنى على النار ، وأَمِنِّى من عذابك يوم تبعث عبادك ، وارزقنى ما رزقته أولياءك وأهل طاعتك ، ووفِّقنى فيه لحسن الأدب وفعل الخيرات وترك المنكرات .
وفى كتاب الشفا أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجل (نزل عن دابته) باكياً وأنشد :

ولما رأينا رَسَمَ منْ لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم^(١) ولألباً
نزلنا عن الأكوار^(٢) نمشى كرامة لمن بان عنه أن نلهم به ركبا

ومن آداب الزيارة أن يبتدئ الزائر بتحية المسجد قبل أن يأتى القبر الشريف ، وهذا قول الإمام مالك ، ورخص بعض المالكية فى تقديم الزيارة على الصلاة وقال كل ذلك واسع ، وقال ابن حبيب : يقول الزائر إذا دخل : باسم الله والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم - يريد أنه يبتدئ بالسلام فى موضعه - ثم يركع^(٣) ، ولو كان دخوله من الباب الذى بناحية القبر ومروره عليه فوقف فسلم ثم عاد إلى موضع يصلى فيه لم يكن ضيقاً^(٤) ، يريد ابن حبيب الإتيان أولاً بالسلام المستحب لداخل المسجد لحديث :

« إذا دخل أحدكم المسجد فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم »

ويتوجّه بعد تحية المسجد إلى الضريح الشريف ، مستعيناً بالله فى رعاية الأدب بهذا الموقف المنيّف^(٥) ، فيقف بخضوع ووقار ، وذلة وانكسار ، غاض الطرف ، مكفوف الجوارح ، واضعاً يمينه على شماله كما فى الصلاة فيما قاله الكرمانى من الحنفية ، مستقبلاً للوجه الشريف ، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان على قيد الحياة .

(١) الرسم هو الأثر .

(٢) الكور جمعها أكوار أى الرجل والمعنى أنه لم يرد أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راكباً بل نزل عن ظهر البعير احتراماً وإجلالاً لمقامه الشريف حيث بدت معالم المدينة المنورة .

(٣) أى يصل تحية المسجد .

(٤) أى مباح .

(٥) المهيب .

وقال المجيد اللغوى : روينا عن عبد الله بن المبارك قال : سمعتُ أبا حنيفة يقول : قدِمَ أيوب السخيتاني وأنا بالمدينة فقلت لأنظُرَنَّ ما يصنع ، فجعل ظهره مما يلي القبلة ووجهه مما يلي وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى غير مُتَبَاكِ^(١) فقام مقام رجل فقيه . وعن أصحاب الشافعى وغيره يقف وظهره للقبلة ووجهه إلى الحضرة^(٢) وهو قول ابن حنبل . ولا بن زُبالة عن سلمة بن وردان قال : رأيتُ أنس بن مالك إذا سلَّم على النبي صلى الله عليه وسلم يأتي فيقوم أمامه .

ولينظر الزائر إلى أسفل ، ولا يشتغل بشيء من الزينة فإنه صلى الله عليه وسلم كما جاء في « الإحياء » عالم بحضورك وقيامك وزيارتك له ، فثقل صورته الكريمة في خيالك ، وأحضر عظيم رتبته في قلبك ، ثم قل من غير رفع صوت ولا إخفاء ، مع مراعاة الحياء والوقار :

السلام عليك أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاته (ثلاثا) السلام عليك يا رسول رب العالمين ، السلام عليك يا خير الخلائق أجمعين ، السلام عليك يا سيد المرسلين وخاتم النبيين ، السلام عليك يا إمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغرِّ المحجلِّين ، السلام عليك أيها المبعوث رحمة للعالمين ، السلام عليك يا شفيعَ المذنبين ، السلام عليك يا حبيبَ الله ، السلام عليك يا خيرة الله ، السلام عليك يا صفوة الله ، السلام عليك أيها الهادى إلى الصراط المستقيم ، السلام عليك يا من وصفه الله بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) وبقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) السلام عليك يا من سَبَّحَ الحصى في يديه وحنَّ الجِدْعُ إليه ، السلام عليك يا من أمرنا الله بطاعته والصلاة والسلام عليه ، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وملائكة الله المقربين ، وعلى آلك وأزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين ، وأصحابك أجمعين ، كثيراً دائماً أبداً كما يحب ربنا ويرضى ،

(١) بكى فعلا .

(٢) الوجه الشريف .

جزاك الله أفضلَ ما جَزَى رسولاً عن أمته ، وصَلَّى الله عليكَ أفضلَ وأكملَ وأزكى وأنمى صلاةَ صلاحها على أحد من خلقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنكَ عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، وأشهد أنكَ قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وأقمت الحجَّة ، وأوضحت المسحجَّة^(١) ، وجاهدت في الله حق جهاده ، وكنت كما نعتَكَ اللهُ في كتابه حيث قال :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) . فصلوات الله وملائكته وجميع خلقه في سمواته وأرضه عليك يا رسول الله ، اللهم آتِه الوسيلةَ والفضيلةَ ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، وآتِه نهاية ما ينبغي أن يسأله السائلون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، اللهم فثبتنى على ذلك ، ولا تردنا على أعقابنا ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

اللهم صلى على سيدنا محمد عبدك ورسولك ، النبي الأمى ، وعلى آله وأزواجه وذريته ، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

هذا ومن ضاق عليه الوقت أو عجز عن حفظ ذلك ، فإنه يقتصر على بعضه وأقله : السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم .

وفي المُستوعِب لأبى عبد الله السامرى الحنبلى : . . . ثم يأتى حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ويذكر السلام والدعاء ومنه : اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك عليه الصلاة والسلام : (واوأنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله

وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ، وَإِنِّي أَتَيْتُ نَبِيَّكَ مُسْتَغْفِرًا
فَأَمَّا لَكَ أَنْ تُوَجِّبَ لِي الْمَغْفِرَةَ كَمَا أَوْجَبْتَهَا لِمَنْ أَتَاهُ فِي حَيَاتِهِ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - وغيره الاقتصار جداً . وعن الإمام مالك رضي
الله عنه يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ؛ واختار بعضهم
التطويل ، وعليه الأكثر .

ثم إن كان أوصاك أحد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل :
السلام عليك يا رسول الله من فلان بن فلان ، أو تقول : فلان بن فلان
يُسَلِّمُ عليك يا رسول الله ، أو نحو ذلك .

ثم يتحرك الزائر إلى يمينه قدر ذراع ، فيصير تجاه سيدنا أبي بكر الصديق
رضي الله عنه فيقول : السلام عليك ياسيدنا أبا بكر الصديق ، يا صفياً رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وثانيه في الغار ، ورفيقه في الأسفار ، جزاك الله عن
أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الجزاء .

ثم يتحرك إلى يمينه مرة أخرى قدر ذراع فيصير تجاه سيدنا عمر ، فيقول :
السلام عليك يا سيدنا عمر الفاروق ، الذي أعز الله به الإسلام ، جزاك الله تعالى
عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير الجزاء . هذا ما ذكره الإمام النووي
وغيره .

وذكر ابن حبيب (المالكي) السلام والثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وعطف عليه قوله : السلام عليكما يا صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وزيري صلقي في حياته ، وخلقتماه بالعدل والإحسان في أمته بعد وفاته فجزاكما
الله تعالى على ذلك مرافقته في جنته وإيانا معهم برحمته .

قال الإمام النووي وغيره : ثم يرجع الزائر إلى موقفه قبالة وجه رسول الله صلى
الله عليه وسلم فيتوسل به ويشفع به إلى ربه .

ويرحم الله أمير الشعراء شوقي إذ يقول مخاطباً له صلى الله عليه وسلم :
ملحتُ المالكين فزدتُ قلراً وحين ملحتك اقتلت السحابا

سَأَلْتُ اللَّهَ فِي ابْنَاءِ دِينِي
فَمَا لِلْمُسْلِمِينَ سِوَاكَ حَصَنٌ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي شِعْرِ رَقِيقٍ :

مَنْ زَارَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ
بِاللَّهِ كَرَّرَ ذِكْرَهُ
وَأَجْعَلَ صَلَاتَكَ دَائِمًا
فَهُوَ الرُّسُولُ الْمُصْطَفَى
وَهُوَ الْمَشْفَعُ فِي الْوَرَى
وَالْحَوْضُ مَخْصُوصٌ بِهِ
صَلَّى عَلَيْهِ رَبَّنَا

شَيْخِي وَالْحِجَاز :

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ أَضْعُ تَحْتَ نَظَرِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ بَعْضُ مَا تَغْنَى بِهِ الْإِمَامُ
فَوَرِيثًا مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ لِأَوْلِيَائِهِ شَيْخِي الْعَارِفِ بِاللَّهِ سَيِّدِي الشَّيْخِ عَلَى عَقْلِ قَدَسِ
اللَّهِ سِرِهِ ؛ فَقَدْ قَالَ يَوْمًا فِيمَا قَالَ مِنْ كَلَامٍ طَوِيلٍ :

دَعْ زَمَانًا مَضَى وَعَدُّ بَنِي لِأَرْضٍ
بَيْنَ بَيْدَاءٍ رَوَعَتْ وَوَهَادٍ
وَنَجْمٍ مِثْلَ الْحُبَابِ عَلَى الْكَأْسِ
قِيلَ مَاذَا تَرِيدُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ
قُلْتُ وَاللَّهِ غَيْرُ أَحْمَدَ مَالِي
يَا حَبِيبِي رِضَاكَ دُنْيَا وَدِينُ
شَغَفَنِي بِنُورِهَا الْمُتَلَالِي
وَذُنَابُ تَخْتَالُ فِي إِقْبَالِ
تَسَامَتْ أَوْ كَالْحُلِيِّ وَاللَّالِي
أَتَبَغْنِي الْبَقَاءَ فِي جَمْعِ مَالٍ
بَعْدَ رَبِّ الْعِبَادِ مِنْ آمَالِ
فَهَمَّا بِاتِّبَاعِكُمْ صَحَّالِي

بَشَرَى الْوُصُول :

وَأَذْكُرُ أَنَّهُ حِينَ سَعِدْتُُ بِزِيَارَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ (فِي عَامِ ١٩٣٤م)
كَانَ مَعِيَ صَدِيقِي الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ مُحَرَّسٌ وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ وَاعِظًا
لِمُرْكَزِ الْأَقْصَرِ ، وَالتَّقَى بَنَا « الْمِدْعَى » ^(١) الَّذِي يَصْحَبُنَا فِي زِيَارَةِ الْآثَارِ الْمُبَارَكَةِ ،

(١) كَلِمَةٌ عَامِيَةٌ تَقَالُ عَلَى مَنْ يُرْشِدُ الزَّائِرِينَ إِلَى الْمَزَارَاتِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ .

فطلب من الشيخ مَبْلَغًا لأتعبه فاستكثره الشيخ وقال له إننا علماء ولسنا في حاجة للإرشاد كغيرنا ، فرد عليه « المدعى » وقال : وهل نحن نأخذ منكم أجرة ؟ قال لقد طلبت مبلغًا كبيراً ، فقال إنه ليس أجرة ولكنه بشرى وصولكم للمدينة المنورة ، فطربت من تلك الإجابة وأقسمت على صديقي أن يعطيه ما طلبه كاملاً غير منقوص ، فأعطاه ما طلب ، فله ما أرق الطلب وما أسمى الأدب . ولئن سمّاها « المدعى » بشرى الوصول فإني أسميها بشرى الوصال ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لا يزار إلا بإذنه ، وما أسعد الزائر في دنياه بإذنه الشريف ، وفي آخره بشفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين .

سيدى العارف الحلوانى الكبير والملائكة :

ومما وقع لسيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه (وهو والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه) أنه بات ليلة بالحرم النبوى بإذن الوالى ، واستمر طول الليل يقرأ القرآن ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف مستقبلاً القبر الشريف على صاحبه أفضل وأزكى تحية ، فبينما هو كذلك رأى أشخاصاً نورانية نازلة من السماء على القبر الشريف ، فأدرك فى الحال أنها من الملائكة ، وكان معه الشيخ محمد الغرباوى البلقاسى وكان نائماً ، فأيقظه ليُريته هذه الأنوار ، فدهش ورُعب ، فأشار عليه سيدى الشيخ الحلوانى بالنوم ، قال : وبقيت هذه الأنوار إلى الفجر .

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه — كما جاء فى كتاب « الفيض الرحمانى » الذى ألفه ابنه المبارك المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الحلوانى غفر الله له « ذكر ابن حجر المكي فى كتابه الجوهر المنظم ، كما ذكر البرزنجى فى كتابه نزهة الناظرين ، روى ابن المبارك والإسماعيلى وابن بشكوك والبيهقى والدارمى وابن الجوزى عن كعب الأحبار أنه « ما من يوم وليلة إلا وينزل عند الفجر سبعون ألفاً من الملائكة يحفون بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ويصلون عليه إلى الليل ، ثم ينزل سبعون ألفاً كذلك الفجر وهكذا . . . إلى أن يقوم صلى الله عليه وسلم من قبره فى سبعين ألفاً يزفونه فى رواية يوقرونه » .

رأى العلامة ابن حجر :

ويتمول العلامة ابن حجر ، فإن قلت ما معنى يصلّون عليه مع إفادة آية (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) أن جميع الملائكة مع كثرتهم التي لا يحيط بها إلا خالقهم يصلون عليه دائماً ، قلتُ معناه أن هؤلاء السبعين ألفاً يؤمرون بصلاة مخصوصة مناسبة لوقوفهم في حضرته صلى الله عليه وسلم .

إكرام والدتي في الرحاب النبوى :

وقد حدثتني المرحومة والدتي عليها الرضوان (وكانت من الصالحات القانتات المباركات كما كانت مستجابة الدعوات) بما أكرمها الله به عندما تشرّفت لأول مرة بزيارته صلى الله عليه وسلم فقد استقبّلت من جهة القبر الشريف بعطرزكي جداً وقعت نقطة منه على وجهها ونقطة أخرى على خمارها ، وقالت ما شممت في حياتي رائحة أزكى منه بل ولا رائحة تقاربه ، وأضافت طيّب الله ثراها أن الرائحة الزكية بقيت في خمارها ستة أشهر ، وحين حدثتني بذلك قلتُ لها لا تنقصيه على غيري ، فإن ذلك مما يحسدك الناس عليه .

بين شاب صالح وبيتي :

ومن طريف ما وقع لي في إحدى زيارتي للمدينة المنورة ، أننى لقيتُ شاباً صالحاً من بني وطننا العزيز فقال لي : أأنت السيد حسن الملطاي ؟ قلت : بلى إننى هو ، هل رأيتنى قبل ذلك ؟ قال : نعم . إنك حاضرتنا في جمعية الشبان المسلمين بمغاغة في سنة ١٩٤٨ ، ومن يومئذ أعرفك ، فتذاكرنا معاً في زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيها من الأُنس والسعادة والبركة . وقلتُ له : أتدري أيها الأخ . لولا كرم ضيافة الرسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعه . لما استطاع القادم أن يُقرّئه السلام لما أعطاه الله من الهيبة التي تخرس الألسنة . فبدا عليه التعجب وقال : كأنك تصف ما وقع لي في أول وقفة بين يديه صلى الله عليه وسلم . قلت : فهاذا كان من أمرك . قال : حُبِسْتُ عن الكلام فلم أستطع سلاماً ولا قولاً . وانصرفت عاجزاً . وقلت في ذلك شعراً ، فسألته عما قال

فكان مما رواه من شعره وأذكره :

عَجَبْتُ لِسَانٌ عِنْدَ قَبْرِكَ يَسْتَطِيقُ خَرُسُ الشَّقَاةِ لَدَيْكَ هُنَّ الْأَصْدُقُ
غَشَى الْجَلَالَ لَدَيْكَ كُلُّ مَشَاعِرِي فَوَقَفْتُ مُضْطَرِبًا وَقَلْبِي يَخْفِقُ

مرارة الفراق :

وإذا كان ذلك في لحظات اللقاء ، فإنك تقدر الشلة التي يلقاها الزائر عند الوداع ، وقد كان يزاملني في الزيارات الصديق الصالح المرحوم الحاج محمود جنوب ، وكان تاجراً بشارع الأزهر ، وفي مرة بكى عند مغادرة الحرم الشريف مودعاً : فقلت له : لاتبك فإننا عائدون إن شاء الله كل عام : فقال : وهل ينخفف عني ألم الفراق إلا نية العودة ، فأعجبني هذا المعنى ، وعندما عدت للوطن العزيز ، رجوت صديقي الوفي المرحوم الشاعر الأديب محمد جاد الرب ، أن يصوغ ذلك المعنى في بيتين من شعره العبقري الذي يعجبني كل الإعجاب ، فقال غفر الله له :

أَسْكَانَ دَارِ الْعِزِّ حَانَ رَحِيلُنَا عَلَى رَغْمِنَا مِنِّي السَّلَامُ عَلَيْكُمْ
وَلَيْسَ يَسْلِينِي عَنِ الْبَعْدِ عَنْكُمْ سَوَى نَيْتِي أَنِّي أَعُودُ إِلَيْكُمْ
فَأُطْرِبُنِي مَا قَالَ .

تحية القلوم عند تكرار الزيارة :

ثم رجوته أن يصوغ على لساني أبياتاً أنشدتها بين يديه صلى الله عليه وسلم إذا قدمت عليه في زيارة لاحقة ، فقال طيب الله ثراه :

لَقَدْ عَدْنَا وَكَانَ الْعَوْدُ أَحْمَدُ سَلَامًا يَا حَبِيبِي يَا مُحَمَّدُ
سَعِيدٌ مَنْ يُحِبُّكَ مِنْ بَعِيدٍ وَمَنْ يَسْعَى لِبَابِكَ كَانَ أَسْعَدُ
فَجَدُّ بِالْوَصْلِ لِلْمَشْتَاكِ فَضْلًا فَأَنْتَ مِنَ السَّحَابِ الْجَوْدِ أَجْوَدُ
وَصَلِّ عَلَيْهِ يَا رَبِّي وَسَلِّمْ وَوَقْتُ كُلِّ مُشْتَاكِ لِيَشْهَدُ

فقلت له : أرجو أن تغير الشطر الثاني من البيت الأول ، قال ولم ؟ قلت لا أستطيع أن أخطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إني قصدت

أن يختم الشطر الأول بأحمد والثاني بمحمد ، ولا يعاب في الشعر أن يذكر باسمه صلى الله عليه وسلم ، قلت إني لا أتكلم في سلامة الشعر ولكني أتكلّم في مذاق الزيارة وأدبها ، قال : إني أعتذر من تغيير ليس له في رأيي مقتض ، فقلت إنك صنعت الشعر على لسانى لا على لسانك أو لسان غيرى ، وأنا الطالب وأنت المتفضل بتحقيق ما طلبتُ ، قال : ولكني أعتذر :

فضحكت وقلت: ستضطرنى أن أغير الشطر بنفسى ولو أنى لست شاعراً
أو أديباً مثلك ، قال فإذا تقول ؟ قلت : أقول ما أحب ، دون ندخل الشعراء ،
فألح أن يسمع منى ما أحب أن أقوله ، فقلت :

لقد عدنا وكان العود أحمد سلاما يا مُقَرَّب يا مُؤَيَّد
فقال : التركيب الأول أحسن ، قلت له : ولو ، وضحكتنا . اللهم اجمعنا
بأحبائنا الذين سبقونا بالإيمان في مستقر رحمتك يا أرحم الراحمين .

واجبات الزائر بالمدينة المنورة :

وعلى الزائر في أثناء إقامته بالمدينة أن يتصدق بما يستطيع ، وأن يُكْرَم أهل المدينة باعتبارهم جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعخص برعايته وأدبه السادة الأشراف من ساداتنا آل البيت لحديث مسلم « أذكركم الله في أهل بيته » وما أرق قول القائل :

فيا سأكني أكناف طيبة كُلُّكُمْ إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
وليغتنم الزائر في أثناء إقامته بالمدينة ملازمة المسجد إلا لمصلحة راجحة ،
وليحرص على ختم القرآن العظيم به ، وعلى أن يبيت فيه ولو ليلة يُحْيِيها بالقيام والطاعة .

المزارات بالمدينة المنورة :

يُسْتَحَب الخروج إلى البقيع كل يوم بعد السلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصاً يوم الجمعة قاله الإمام النووي ، وليأت قبور الشهداء بأحد ،
ويزور جبل أحد في الصحيح : « أحد جبل يُحِبُّنا ونُحِبُّه » . وَيُسْتَحَب استجابة

متأكداً إتيان مسجد قباء وهو في يوم السبت أولى ، فيتوضأ ويذهب إليه ، ويستحب إتيان بقية المساجد والآثار المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم . وفي مناسك الإمام خليل المالكي بعد ذكر استحباب زيارة البقيع ومسجد قباء ونحوهما : وهذا فيمن كثرت إقامته وإلا فالمقام عنده صلى الله عليه وسلم لاغتنام مشاهدته أحسن .

وليلاحظ الزائر مدة إقامته بالمدينة جلالتها ، وتردده صلى الله عليه وسلم فيها ، ومشيه في بقاعها ، ومحبه لها ، وتردد جبريل عليه السلام بالوحي فيها ، ولا يركب بها دابة ، وقد كان الإمام مالك يقول : إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، وفي رواية أخرى : . أخشى أن يقع حافر الدابة في محل مشى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أدب مغادرة المدينة :

وإذا أراد الزائر مغادرة المدينة المنورة ، فليودع المسجد النبوي الشريف بركتين بالمصلى النبوي إن أمكن أو ما قرب منه ، ثم يقول بعد الحمد والصلاة والسلام : اللهم إني أسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، إلى غير ذلك مما يستحب للمسافر ، ويدعو فيما يدعو به قائلا : اللهم لاتجعله آخر العهد بهذا الحرم ، ويختتم بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، ويأتي القبر الشريف ، ويسلم ويدعو بما تقدم أولا ويقول : نسألك يا رسول الله أن تسأل الله تعالى ألا يقطع آثارنا من زيارتك ، وأن يعيدنا سالمين ، وأن يبارك لنا فيما وهب لنا ، ويرزقنا الشكر على ذلك .

اللهم لاتجعله آخر العهد بحرم رسولك صلى الله عليه وسلم وحضرته الشريفة ، ويسر لي العود إلى الحرمين سبيلا سهلة ، وارزقني العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

والأصل في صلاة الركعتين حديث « كان لا يستزِل^(١) منزلا إلا ودّعه بركتين » ، ويكون الزائر بعد انصرافه متعلق القلب بالزيارة ، مشتاقا إلى تكرارها كما قيل :

(١) أي الرسول صلى الله عليه وسلم .

أَحِينٌ إِلَى زِيَارَةِ حَيِّ لَيْلَى وَعَهْدِي مِنْ زِيَارَتِهَا قَرِيبٌ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ الدَّارِ يُطْفِئُ لَهَيْبَ الشَّوْقِ فَازْدَادَ اللَّهَيْبُ

وينبؤ الزائر بعد ذلك أَنَّ يلتزم التقوى، ويحذر المعاصي حتى يلقى الله تعالى ، وليكن على باله قوله تعالى في سورة الفتح : (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورٌ إِلَيْهِ أَجْرًا عَظِيمًا) .

عطف نبوى كريم :

وقد عطف على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى زيارتي . وكان ذلك العطف أحب إلى الله مما طلعت عليه الشمس . فبذ أكثر من عشرين عاماً كنت متشرفاً بزيارته ، وأردت أن أرحل إلى مكة المكرمة معتمراً وحاجاً ، فاغتسلت ولبست ملابس الإحرام استعداداً لعقد النية بالعمرة في مطار المدينة . ودخلت الحرم للتوديع ، وتشرفت بالوقوف بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وخرجت لأركب السيارة من ميدان المناخ ، وبينما أنا سائر في شارع العيسية . وإذا بصوته الشريف يَرِنُ في أذني بقوله المبارك : شِيعَتُكُمْ السَّالِمَةُ ، ولم يكن لي عهد بلفظ شيعتكم إذ كان المعروف لنا : رافقتكم أو صحببتكم . فما كدت أسمع صوته الشريف حتى داخلني حالة روحانية ، فانهلَّت دموعي على خدي وتوالت ،

فلم أملك دموعَ العين منى ولا النفس التي جاشت مراراً
وظن من معي أن ذلك البكاء من أثر الفراق ، ولم يدرك أنه من أثر الحنان الأبوي والعطف النبوي على ضعفاء الأمة .

ثم وصلنا إلى المطار ، وركبنا طائرة من طراز « داكوتا » كانت من مخلفات الحرب ، وما كادت تصعد في السماء حتى تعرضت للمطبات الجوية ، فلماذا هي تنزل حتى نقول لا تَصْعَدْ ، وتصعد حتى نقول لا تنزل . واضطرب الركاب ، وخرج مساعد الطيار ليطمئنهم . ومنهم من تقايا ، ومنهم من تغير لونه وامتنع . فكنت أقول لهم : لا تخافوا ففيها سلامة إن شاء الله ، وأدرت سر ذلك العطف عندئذ ،

وأنه صلى الله عليه وسلم طمأننا بِلُغَةِ الْجَمْعِ لَا بِلُغَةِ الْمَفْرَدِ فَقَالَ « شَيَّعْتُمْ
السلامة » لتشمل الجميع سلامة الله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت
كلمته سكنًا لنا جميعًا . فما أبّره صلى الله عليه وسلم : وما أرفقه بالمؤمنين وما أرحمه
بزائريه .

صديق يحبني :

وأمتع القارئ الكريم بأبيات من قصيدة حيّاني بها صديق العبقري الشيخ
الساوي شعلان من نحو عشر سنين ، وكنت قد عدت من العمرة والزيارة وسكنت
داري التي بنيتها بمدينة الأوقاف . قال عفا الله عنه ومدّ في عمره :

بالله كيف شهدت أنوار الحمى	تشفى بمرآها المحب المغرما
ودخلت من باب السلام على الذي	صلى عليه ذو الجلال وسلما
وسعدت يا حسن الرضا برحابه	فبلغت تكريمًا وعدت مكرمًا
وقفت بين الصاحبين تسخّشعا	وكأنا القمران فيض منهما
في باب جبريل ومهبط وحّيه	يجد الدعاء إلى الإجابة سلّما
ورأيت جنات البقيع نواضرا	تختال أجداثًا وتشرق أعظما
أصغيت في أحد إلى شهادته	قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
جمعتهم الفردوس تحت ظلالها	بالسفح أقماراً تضيء وأنجما
في كعبة الله اعتمرت مقبلا	من وجهها الركن العلي الأعظما
ومِن الطّواف إلى المقام إلى الصفا	يا فوز مشتاق سعى وترسما
المسرّ يكرم ضيفته بشرابه	والله أكرم حين يسقى زمزما
يستقبل البيت الجديد مناره	لو يستطيع مشى إليك مُسلّما
هو منزل في مسجد في روضة	وجد المواهب كلّها من يسمّا